الفصل التاسع

* علم النفس في خدمة الأمن

— نظرية الأمن

— الشخصية والبيئة

— دوافع الإنحراف

— كشف الجريمة

علم النفس في خدمة الأمن

نشأ علم النفس الجنائي ليكشف جوانب هامة تكشف عن أسباب ودوافع الإنحراف وتساعد بالتالي على وقاية الأفراد والجماعات منها، كما أن علم النفس بدراسته لجوانب السلوك الإنساني قد أصبح أداة هامة لفهم هذا السلوك وتوجيهه، واستطاع رجال الشرطة في دول عديدة أن يضعوا نتائجه في خدمة الأمن ودخلت دراسته ضمن مناهج كليات الشرطة في مختلف دول العالم..

وحول دور علم النفس في خدمة الأمن، وتمكين رجل الشرطة من فهم نفسية المجرم ودوافع انحرافه، والتأثير على الاتجاهات السائدة بما يخدم مصالح المجتمع.. ومدى أهمية علم النفس لرجل الشرطة، وكيف يمكن له أن يستفيد بنتائجه في مجال عمله..

الشخصية... والبيئة

إن علم النفس يجعل رجل الشرطة على إلمام بما هو طبيعي في سلوك الإنسان وهذا ينتهي به في نفس الوقت إلى معرفة ما هو غير طبيعي، ورجل الشرطة خلال تعامله مع نماذج عديدة من الشخصيّات يكون في أشد الحاجة إلى فهم مكونات كل شخصية من حيث القوّة أو الضعف، ومن حيث نضج الإنفعال، وما يغلب عليها من ميول..

وهناك جانب آخر يتمثّل في أن علم النفس يرتبط ويعتمد الى حد كبير على البيئة التي تتفرّع منها التقاليد والعادات والموروثات والتراث والثقافة الخاصة بكل مجتمع .. وتعرف رجل الشرطة على مكونات البيئة وتفاعل الثقافات فيها هو أمر آخر له أهميته بالنسبة له.. ومثال ذلك أن الخمور والمخدّرات لم يكن تعاطيهما منتشراً في هذه البيئة ، وظهورهما إنما هو نتيجة التفاعل مع الثقافات الوافدة من بيئات أخرى .. كما أن فهم التركيب الإجتماعي للبيئة يجعل رجل الشرطة أقدر على التعرّف الى مواطن الخلل وتوعيته وتحديد مصدره في المجتمع . فهو بفهمه للتركيب الإجتماعي للبيئة يستطيع أن يحدد مقدماً أي نوع من الإتجاهات يمكن أن يأتي من ناحية معينة ، أي يمكنه من التنبؤ باتجاهات تحكمه كما يتنبأ رجل الأرصاد بحالة الطقس ، كما أن هذا الفهم يحدد اتجاه حركته عند وقوع جريمة معينة.. لأنّه يعرف من أي قطاع في المجتمع يمكن أن يكون مصدرها.

اكتساب الثقة :

ونأتي إلى جانب آخر أهمية ، وهو مدى استفادة رجل الشرطة من علم النفس خلال تعامله مع الناس.. إن هناك مثلاً من يرفضون التقدّم للإدلاء بشهادة أمام رجال الشرطة رغم أهمية ما يتوفّر لديهم من معلومات ، وربما يتقدّم ولكنه لا يدلي بكل ما لديه.. ويكون السبب في الحال هو الرهبة.. وتكون مهمة رجال الشرطة في هذه الحالة هي الوصول إلى مثل هؤلاء الناس وطمأنتهم ولا وسيلة لذلك سوى الإلمام بقدر من علم النفس يجعلنا قادرين على كسب ثقة الآخرين.

نشر الوعي :

ويظهر دور علم النفس واضحاً عند نشر الوعي بالجريمة أو تفادي وقوعها.. إن هذا أمر يحتاج الى فهم نفسية الجمهور ووسائل التأثير فيه.. إن هناك لافتات للتحذير من حوادث المرور ، وتحديد العبارات المكتوبة على هذه اللّافتات يحتاج الى فهم نفسية الجمهور حتى تحقق التأثير المطلوب.. إن هناك بعض عبارات التخويف

التي يمكن أن يستفز مشاعر الشخص وتؤدّي الى رد فعل معاكس ، ويكون الأفضل من هذا أن نوقظ الوازع النفسي الموجود في كل شخص من خلال عبارات مثل « لا تسرع فأطفالك في انتظارك » أو نثير في نفسه الإحساس بالذنب على ما يرتكبه من خطأ حتى يرتدع منه ، ويمكن أن يتحقق ذلك عن طريق عبارات مثل « الخطر أمامك فاختر بين الموت والحياة » أما إذا لجأنا الى التهديد فإنّه يمكن أن يندفع نحو الخطر لمجرّد الشعور بالتحدّي والإنتصار ، وهذه نتائج يمكن تفاديها إذا ما توفّرت لديها الالمام بقدر من علم النفس ..

استخلاص الحقيقة :

كيف يمكن الاستفادة بعلم النفس لاستخلاص الحقيقة من الشهود أو المتهمين عند وقوع جريمة؟

إن المهمة الأولى للمحقق عند استخلاص الحقيقة من أحد الشهود تكون هي استقطاب رضاه للإدلاء بما لديه من معلومات وهو في هذا يحتاج الى الإلمام بعلم النفس كما ذكرنا ، كما أنه من الضروري الاستعانة بعلم النفس للتعرّف على طبيعة عملية التذكر والنسيان ، ففي بعض الأحيان يدلي شخص بشهادة لا تكون جزئيّاتها مطابقة تماماً لوقائع الجريمة ، وهذا يعد نوعاً من التحريف في الذاكرة ، وهي الوجه الآخر للنسيان .. فكلما طالت الفترة على وقوع حادث يتعرّض للنسيان ، وهو حين يتذكّر فإنّه يتذكّر الكل ثم الجزئيّات ، أما حين ينسى فإنّه الجزئيّات ثم الكل ، والمحقق أو القاضي لا يركّز اهتمامه على معرفة الكل ، وإنما هو يعني بالجزئيات التي غالباً ما يصيبها النسيان .. وادراك هذه الحقائق يجعل المحقق أو القاضي أقدر على تقييم مدى صحة أو دقة الشهادة التي يدلي بها أحد الأشخاص.

ثم يأتي عامل آخر يؤثّر على قيمة الشهادة وهو الدوافع .. فقد يكون الشخص قد تعرّض لانفعال شديد أثناء مشاهدته لحادث ترتب عليه هزة نفسية لا تجعل الأشياء ثابتة في ذهنه ، وقد يكون هناك الخوف من مضاعفات الشهادة تحت ضغوط

معينة.. وفي مثل هذه الحالات يكون الشاهد صادقاً مع نفسه وهو يدلي بأقواله، لكن تكون هناك دوافع لا شعورية تطفو على السطح وتدفعه الى التغيير والتبديل.. ولقد أجريت تجربة علمية قامت على أساس احضار بعض الأشخاص الذين حضروا واقعة معينة، وطلب من كل منهم أن يدلي بما شاهده.. فأدلى كثيرون بأشياء لم تقع، كما كان لكل شخص تفسير لما حدث يختلف عن الآخر.. وهذه كلها أمور يجب أن توضع في الإعتبار عند استخلاص الحقائق من الشهود.

كشف الكذب:

أما بالنسبة للمتهمين فإن علم النفس بوسائله يساعد على استخلاص الحقائق منهم.. بل إنّه قد تمّ ابتكار جهاز خاص للكشف عن الكذب تقوم فكرته على أنه عندما يلجأ شخص الى الكذب يصاب بنوع من التوتر والقلق والخفقان، وهذا ما يكشف عنه هذا الجهاز عن طريق مؤشر خاص يعتمد على الذبذبات الكهربائية... ورغم الاعتماد على هذا الجهاز في اكتشاف الكثير من الحالات الكذب الا أن هناك من ينتقد استخدامه استناداً الى اعتبارات أخلاقية. وينظرون اليه كنوع من الاستغلال للمتهم، حيث أن هناك عوامل عديدة أخرى مثل الخوف يمكن أن تثير نفس الإنفعالات لديه، ومن الإجحاف به أن ينظر اليها كمؤثر على الكذب.. ولكن حتى بدون استخدام هذا الجهاز فإن المحقق يمكن أن يستفيد كثيراً من علم النفس في استخلاص الحقيقة من المتهم، من خلال دراسته لشخصيته...

الجريمة ودوافع الإنحراف:

كيف تتولّد الجريمة؟ ما هي العوامل المؤدية إلى وقوعها؟ وما هي مسؤولية البيت والمدرسة والمجتمع في تنشئة جيل سليم كوسيلة لحماية المجتمع من الإنحراف الذي يؤدّي الى الجريمة انطلاقاً من القول بأن الطفل الجانح اليوم هو الرجل المجرم غداً؟

يقول الدكتور الزين: إن هناك اتجاهات عديدة لتفسير الجريمة يساند كل منها

تجارب ودراسات وإن كان من الممكن في النهاية التوفيق بينها لاستخلاص نظرية عامة لتفسير الجريمة ودوافعها وأسبابها...

هناك اتجاه يقول بأن الجريمة إنما هي نتيجة مكونات وراثية، أي أن الشخص يولد ولديه بذور الانحراف.. وللتدليل على ذلك تم تحليل الكروموزومات التي تحدد الخصائص الوراثية لدى عدد من معتادي الاجرام وتبين أن هناك اختلافات بينها وبين تكوين كروموزومات الأشخاص العاديين.. ويقال أن مثل هؤلاء الأشخاص لديهم الاستعداد الفطري للإجرام..

وإذا كان هذا الاتجاه صحيحاً، فالواقع أن التكوين الوراثي وحده ليس هو الدافع الوحيد، ذلك أن البيئة تلعب دوراً هاماً في تهيئة المناخ الملائم للجريمة، وسرعة الدفع اليها.. فالبيئة هي التي تكون المناخ الذي تنمو فيه الاستعدادات.. فإذا كان في البيئة عوامل منشطة للمكونات الوراثية للدفع في اتجاه الجريمة، فإننا نكون قد أضفنا بذلك عاملاً آخر لارتكابها..

الوراثة والبيئة :

هناك في المقابل اتجاه آخر يضع المسؤولية كلها على المجتمع، ويقولون بأن المجتمع هو الذي يدفع بالأشخاص الى ارتكاب الجرائم ولكن مع وجود شخصين في نفس الظروف. فإنّنا نجد أحدهما يتجه الى ارتكاب الجريمة في حين لا يتوفر لدى الآخر الاستعداد لذلك، وهذا يدلّنا على أن هناك عاملاً آخر يلعب دوراً في الدفع الى الجريمة. ذلك هو التكوين الوراثي أو الفطري.

ولذلك فإنني أميل الى الأخذ بالرأي الذي يقول بأن هناك تركيب وراثي واستعداد فطري يدفع الى ارتكاب الجريمة وتضاف اليه عوامل البيئة المؤثرة، والتي تعد الأساس في تقويم هذا الاستعداد أو تنميته وتأكيده.. وهذا في الحقيقة هو الإتجاه الأجدى في فهم دوافع الجريمة والعمل على الوقاية منها..

التنبؤ بالإنحراف

إننا نستطيع منذ مرحلة الطفولة التعرّف على هؤلاء الذين يتوفّر لديهم الاستعداد للجنوح. فبواسطة الدراسة التتبعية لحالاتهم يكون في إمكاننا بكثير من الإنضباط التنبؤ بما إذا كان هذا الطفل سيتجه الى الإنحراف أم لا، ويعد هذا بمثابة تحديد لهوية الطفل.. وإذا تبين أن الطفل لديه الاستعداد للجنوح، فإن دورنا بعد ذلك يتركّز على ابعاده عن البيئة التي يمكن أن تنمي فيه هذا الاستعداد وإحاطته بالرعاية التي تقوم اتجاهه.. ومن هنا تأتي أهمية توفر مراكز رعاية الأحداث الجانحين، والتي أصبحت بمثابة معاهد للتأهيل والاعداد، وتصريف الطاقات الاجرامية في مجالات أخرى، وابعاد الطفل عن مجالات الانحراف.

فالواقع فعلاً أن الطفل الجانح اليوم سيكون الرجل المجرم في الغد، وذلك ما لم يتم تقويمه وعلاجه وابعاده عن البيئة التي تنمّي فيه عوامل الإنحراف، وتأتي الأسرة كأهم وحدات البيئة المؤثرة في الطفل، ثم المدرسة فالمجتمع كلّه بجميع مؤثراته.

تأثير الأسرة:

إن أكبر العوامل المؤثرة في شخصية الطفل وتكوين أو تأكيد اتجاهاته هو التركيب الأسري والعلاقات الأسرية، فالطفل في المرحلة الأولى عجينة قابلة للتشكيل، وهذا ما دفع ببعض علماء النفس السلوكي مثل واطسون الى القول «أعطني طفلاً صغيراً أصنع لك منه ما تشاء».

والتفكك الأسري والمعاملة الأسرية ينعكسان على شخصية الطفل بصورة كبيرة.. ومثال للعوامل المؤثرة على شخصية الطفل عدم الإتفاق بين الوالدين في أسلوب معاملة الطفل داخل الأسرة، والتفضيل بين الأطفال مما يترتب عليه إثارة نوازع الغيرة الموجودة في نفسية كل منهم، والتذبذب في مبدأ توقيع العقوبة والجزاء وذلك بمعاقبة الطفل على تصرّف سبق السماح له به قبل ذلك، وأن تكون هناك خلفية من العطف على الطفل تلازمه كالظل الدائم، حيث لا يشعر الطفل في هذه

الحالة بأنه سيفقد شيئاً إذا ما انحرف بسلوكه ، ولأن في الإنحراف لذّة ، فإن الطفل يمكن أن يفضل هذه اللذة الطارئة ما دام لن يفقد شيئاً من العطف عليه ، ثم هناك أيضاً عدم التوافق بين الزوجين ، وهو أمر ينعكس بأثر خفي ولكنه مدمر على الأطفال ، وهذا ما يسمّى بتورطات الوالد ففي كثير من الأحيان يكون الطفل المنحرف مجرّد عرض لمرض أو خلل داخل الأسرة .

إنّنا نجد للأسف أن هناك أسراً تشجع الأطفال على العنف وتبشّر بالاعتداء على الآخرين ، وهناك أسر لا تستهجن مثلاً أسلوب السرقة من جانب الطفل .. وهذه كلها أمور لها خطورتها في هذه المرحلة التي تعد مرحلة تكوين الضمير ، فإذا نشأ الطفل في مثل هذه الأسر ، ووجد أن أموراً مثل العنف والاعتداء والكذب والسرقة مقبولة فيها فإنّه لا بدّ وأن يخرج بضمير خرب ، فالضمير ليس سوى مجموعة القيم التي يكتسبها الطفل خلال سنوات حياته الأولى ، وبعد ذلك يمكن أن يقوى أو يضعف ، ولكنه لا يعود الى مرحلة التكوين التي تبدأ في الطفولة الأولى ..

الخروج الى المجتمع :

ويشب الطفل ليتعرّف على مجتمع الحارة أو الشارع ، ويكون أول مجتمع يتأثّر به خارج الأسرة ، حيث يشعر أنه يتعامل مع مجموعة من مختلف المستويات والأمزجة والطباع . ولقد أثبتت الدراسات التي أجريت في عدة أحياء أن حالات الجنوح تنتشر في بعض المدارس أكثر من انتشارها في مدارس أخرى ، وهذا دليل على مدى تأثير مجتمع الحارة في نفسية الطفل وسلوكه .

وتتسع علاقات الطفل ، ويزداد تأثره بالمجتمع وبمدّى الترابط أو التفكك في علاقاته .. وما نشاهده من تفكك في العلاقات الإجتماعية أو له خطورته ، حيث نلاحظ أن البيوت قد تحولت الى مجرّد أرقام بعد أن كانت قبل ذلك أواصر قربى ومودّة .. وهنا أيضاً يبرز الدور الهائل لوسائل الترفيه والإعلام على شخصية الطفل وخاصة التلفزيون والسينما وما يطالعه من مجلّات ونحوها .. فالأطفال يميلون الى

التقليد والمحاكاة والقدوة تلعب في حياتهم دوراً كبيراً حيث يحاول الطفل أن يكون مقبولاً من الآخرين ولديه الاستعداد للتأثر بهم والاستجابة لهم.. فإذا كان المجتمع يقبل العنف مثلاً فإنّه سينشأ على تقبله، ويحدث العكس من ذلك إذا كان العنف مرفوضاً.. وهنا يقول البعض بأن ما يراه الطفل من مشاهد العنف في التلفزيون مثلاً يمكن أن يكون وسيلة للتنفيس عن مشاعره وطاقته.. ولكنه هذه في الحقيقة وسيلة ضارة للتنفيس، ويمكن أن تكون لها بدائل تؤثر إيجابياً على شخصية الطفل واتجاهاته مثل ممارسة الهوايات والإنشطة الرياضية وغيرها.. أما ما يعرض عليهم من مشاهد العنف فلا مبرر له اطلاقاً، فالذي يحدث هو تقمص الأطفال للشخصيّات التي يرونها ويتأثّرون بها، وبما أن العنف أصبح الطابع الغالب، فإن النتيجة هي تشكيل جيل ميال الى العنف، والمؤسف أن الشاشة البيضاء قد تحولت الى قطعة حمراء من الدم، وليس هناك اختيار آخر ما لم يتغير هذا الاتجاه، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغير ما بأنفسهم.. وهذه فرصة للتأكيد على أهمية ضرورة توفر ثقافة خاصة بالطفل ونعني الثقافة بمفهومها الواسع من كتب ومجلات وسينما وتليفزيون.. الخ.. ونحن لا نستطيع أن نمنع الطفل عن هذه الوسائل الحضارية أو التأثر بها، ولكن في إمكاننا أن نقدّم له من خلالها المادة التي تستهدف خلق جيل سليم معافى.. وهذه مسؤوليتنا لحماية هذا الجيل، وحماية المجتمع كله من اتجاهات العنف والإنحراف والجريمة..